(التعريف والنقد)

نظرات في نظرات

٣

الأستاذ أحمد راتب النفاخ

١١ ـ تصدّى الأستاذ في الفقرة (٤٧) لتقويم ما رآه منحرفاً في هـذين البيتين :

فيصبح باليه جـديـداً ونبتـه   أفيفـاً وينمي مـالـه حين يسرح
أرى فـزعـاً غُرّاً يبشّرنَ بـالحيـا   ينتّـج في أوطـان ميّ ويلقـح

فقال في البيت الأول : « أرى أن « أفيفاً » بـالفـاء تحريف « أثيثـاً » بالثاء ، والنبت الأثيث الكثير الملتف » .

ولا شك أن الشاعر إنما أراد « أثيثاً » ولكن إذا صحّ أن الثـابت في أصل كتاب الهجري « أفيفاً » بالفاء فإن له وجهاً . وذلك أن الثاء والفاء من حروف المعاقبة وقد ذكر أصحاب اللغة مما تعاقبا فيـه حروفـاً جمـة ، من نحو « جـدث » و « جـدف » و « لثـام » و « لِفـام » و « حثـالـة » و « حفـالـه » . انظر القلب والإبـدال ، لابن السكيت ، ص : ٣٤ ـ ٣٦ (ط . هفنز في الكنز اللغـوي) وص : ١٢٥ ـ ١٢٧ (ط . مجمـع اللغـة العربيـة بـالقـاهرة) والإبدال ، لأبي الطيب ١ : ١٨١ ـ ٢٠٠ . غير أني لم أصب نصاً على تعـاقبهما في « أثيث » . ومع ذلـك لا يبعـد أن يكـون الإبدال فيه لغة قائل هذا الشعر أو لغـة من أنشـده ، فقـد تعـاقبت الثـاء

● نشر القسمان الأول والثـاني من المقـال في مجلـة المجمـع (مـج ٥٩ ص ٥٨٧ ، مـج ٦٠ ص ٣٠٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والفاء - كما يقول الفراء - في كثير من الكلام ، انظر كتابه معاني القرآن ١ : ٤١ ، و ٣ : ٢٤١ . ويؤنس بذلك أنّ أهل البحرين اليوم كثيراً ما يبدلون الثاء فاء ، ومن ذلك أنهم يقولون « فلافة » بدل « ثلاثة » أخبرني بذلك الأخ الأستاذ علي التاجر وغيره من البحرانيين .

وأمّا البيت الثاني فقال الأستاذ فيه : « أرى « فزعاً » بالفاء تصحيف « قَزَعاً » بالقاف ، وهو السحاب المتفرّق ، وأن « غُرّاً » تصحيف « غَمْراً » بالميم بعد الغين ، وهو الماء الكثير الذي يغمر ويغطي ، أو البحر ، ووصف القزع وهو جمع بالغمر وهو مفرد معروف في لغة العرب ، كقوله تعالى : ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ - (التحريم / ٤) وكقول زهير :

وإن يشتجر قوم يقل سرواتهم هُم بيننا فهمْ رضىً وهُم عَدْلُ »

وما ذهب إليه الأستاذ من أن « فَزَعاً » تصحيف « قَزَعاً » صواب محض . وأما أن يكون « غُرّاً » تصحيف « غَمْراً » فما أعرف أن السّحب توصف بـ « الغمارة » وما ذكره من أن وصف الجمع بالمفرد معروف في لغة العرب لا يصحّ على إطلاقه . والشاهدان اللذان احتجّ بهما وقع فيهما الإخبار عن الجمع بالمفرد لا وصف الجمع بالمفرد ، ولكن لا ضير في ذلك ، فإن حكم الصفة والخبر في هذه البابة واحد ، ومع ذلك لا حجة له فيهما لما سيأتي بيانه . والصحيح في المسألة أن الصفة - ما لم تكن سببية رفعت اسماً ظاهراً - ينبغي أن تطابق موصوفها في الإفراد والتثنية والجمع ، وفي التذكير والتأنيث . انظر بسط ذلك في شرح المفصل ٣ : ٥٤ - ٥٦ وغيره من مطوّلات النحو . وكذلك حكم الخبر مع المخبَر عنه ما لم يكن سببياً رفع اسماً ظاهراً أيضاً . ويخرج عن ذلك الوصف والإخبار بالمصدر ، فإنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يستوي فيها المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، نحو قولهم : « رجلٌ كَرَمٌ » و « امرأة كَرَمٌ » وكذلك يقولون في مثنييها وجمعيها أيضاً . ولأصحاب العربية في تأويل ذلك مذهبان . أحدهما : أنه على تقدير مضاف محذوف مطابق للموصوف أو المخبَر عنه . وعلى هذا يكون قولهم : « رجل كَرَم » .... و « رجال كَرَمٌ » في تقدير « رجل ذو كرمٍ » .... و « رجال أولو كَرَمٍ » . والمذهب الآخر ـ وهو اختيار المحققين ـ أنهم جعلوا الموصوف والمخبر عنه الحدث نفسه (المصدر) على وجه الاتساع والمبالغة . انظر في ذلك كتاب سيبويه ١ : ١٦٩ ، والمقتضب ٣ : ٢٣٠ ، والخصائص ٢ : ٢٠٢ ـ ٢٠٤ و ٣ : ١٨٩ ، والمحتسب ٢ : ٤٣ ، ٤٥ ـ ٤٦ ، وأمالي ابن الشجري ١ : ٧٠ ـ ٧١ ، وشرح المفصل ١ : ١١٥ و ٣ : ٤٩ ـ ٥٢ ، وشرح الكافية ١ : ٣٠٦ ، والخزانة ١ : ٢٠٧ . وأما قوله تعالى : ﴿ والملائكةُ بعد ذلك ظهيرٌ ﴾ [سورة التحريم : ٤] فلا حجة له فيه من قبل أن ما كان من بناء « فَعول » أو « فعيل » فإنه يجري على المفرد والمثنى والجمع بلفظ الواحد ، أو كثيراً ما يكون كذلك . ومن الأوّل لفظ « عدوّ » في قوله تعالى : ﴿ فإنهم عدوّ لي إلا ربّ العالمين ﴾ [سورة الشعراء : ٧٧] وغيرِه من الآي ، ومن الآخر الآية التي احتجّ بها الأستاذ ، وقوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أولئكَ رَفِيقاً ﴾ [سورة النساء : ٦٩] وقوله : ﴿ وخَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ [سورة يوسف : ٨٠] ومثل ذلك في القرآن والشعر كثير . انظر معاني القرآن ، للأخفش ١ : ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، وتفسير الطبري ٢٨ : ١٠٥ (ط . بولاق) و ٨ : ٥٣٢ ـ ٥٣٣ و ١٦ : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ (بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر) والكشاف ١ : ٤١١ و ٢ : ٣٨٤ و ٣ : ٢٥١ ط . المكتبة التجارية) ومجمع البيان ٣ : ٢٥٤ و ٥ : ٣١٣ ، والبحر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المحيط ٣ : ٢٨٨ و ٥ : ٣٣٥ و ٨ : ٢٩١ . وانظر أيضاً « باب ما يكون واحداً يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد » في المخصص ١٧ : ٢٩ ـ ٣٥ .

وبعدُ فإن « غَرّاً » في البيت صحيح لا شبهة فيه ، وإنما أراد الشاعر « قزعاً بيضاً » فإن « غُرّاً » جمع « أغرّ » ـ وهو الأبيض ـ ومؤنثه : « غرّاء » . وما أدري ما الذي راب الأستاذ في هذا اللفظ حتى اتّهمه بالتصحيف مع أن وصف السحائب بذلك معروف وليس بنادر ، يحضرني من شواهده قول الحطيئة (ديوانه ٢٤٨ ، واللسان : غمم) :

إذا غبتَ عنا غابَ عنّا ربيعُنا ونُسْقَى الغمامَ الغُرَّ حين تؤوبُ

وقول توبة بن الحميّر (الأغاني ١١ : ٢٠٨) :

حمامةَ بَطْنِ الواديينِ ترنّمي سقاكِ من الغُرّ الغوادي مطيرُها

وقول ابن ميادة (أساس البلاغة ـ نحر) :

أطاعَ لها نبتُ الخُزامى وجادَها بأوطانِها غُرُّ السَّحابِ المشهّر

وقول آخر (أساس البلاغة ، واللسان : نفى) :

كأنّك بالمباركِ بعدَ شَهْرٍ يناغي موجُه غُرَّ السّحابِ

وقول أبي الطيب :

سقاها الغمامُ الغُرُّ قبلَ نُزولِه فلمّا دنا منها سقتْها الجماجمُ

١٢ ـ قال الأستاذ في الفقرة (٤٩) : « وفي (ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨) روى الهجريّ لعمرو بن المسلّم قوله :

أقمتُ زماناً بالمدينة راجناً أباصرُ ما والي أميةَ صانعُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نهاري نهار الناس حتى إذا دجا لي الليل هزّتني إليك المضاجعُ
أعلّل نفسي بالحديث وبالمنى ويجمعني والهمّ بالليل جامع
ليرزقنك الله من بين خلقه أم أنت من الرزق الذي الله مانعُ

وقال الأستاذ المحقق في الأبيات إنه لم يجدها « في المصادر الأدبية المختلفة » . قلت : إن كان الهجري رواها لعمرو بن المسلّم ، فهي مروية ـ عدا البيت الأخير ـ لابن الدمينة كما في ديوانه (٨٨ ـ ٩٠) [الصواب : ٨٧ ـ ٨٨] وكما في الأغاني (١٧ / ٩٩ ـ ١٠٠) وكما في مراجع أخرى ذكرها محقق ديوانه .... » .

قلت : وقد زدت في تخريجي لقصيدة ابن الدمينة في ديوانه ، ص : ٢٣٥ على ماذكر الأستاذ أن البيتين ٣ ، ٤ ـ وهما الثالث فالثاني مما أنشده الهجري لعمرو بن المسلّم ـ قد نسِبا ايضاً إلى المجنون في مصادر سمّيتها ثمة ، ونسبا إلى قيس بن ذريح في روايات أخر منها رواية القالي لقصيدته الطويلة في أماليه ٢ : ٣١٤ ـ ٣١٧ ، وإحدى روايات الأغاني ٩ : ٢١٧ ، غير أن أبا الفرج صحّح القول بأنها لابن الدمينة . وأزيد هنا أن أبا بكر بن الأنباري رواهما في الزاهر ١ : ٢٥١ لابن الدمينة أيضاً ومعهما ثالث بعدهما ، وهو :

أبى الله أن يلقى الرشاد متيّمٌ ألا كلُّ أمر حمّ لا بدّ واقع

وهذا البيت ثابت لقيس بن ذريح في رواية القالي وأبي الفرج لقصيدته . وانظر كتاب « قيس ولبنى ـ شعر ودراسة » للدكتور حسين نصار ، ص : ١٠٠ وما بعدها .

وقد فات الأستاذَ أن ينبه على أن البيت الأخير مما رواه الهجري لا يصح ـ كما أثبته الناشر ـ وزناً ولا معنى ، وصوابه فيما أقدّر :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أَيَرْزُقُنيكِ اللهُ من بَيْنِ خَلْقِهِ أَمَ آنتِ من الرّزق الذي الله مانعُ

وعجز البيت لا يتّزن بتحقيق الهمزة في « أنت » كما نقله الأستاذ ، بل لابدّ لاتّزانه من حذفها بعد نقل حركتها إلى الميم الساكنة قبلها كما أثبتّه .

وقال الأستاذ في هذه الفقرة أيضاً : « والبيت الأول فيه « راجناً » وهو تصحيف « راجياً » وروايته في ديوان ابن الدمينة :

أقمتُ على رَمّان يوماً وليلةً لأنظر ما واشي أميةَ صانعُ

وفي الأغاني « زمّان » بالزاي بدل « رمان » بالراء وأظنها تصحيفاً . ورواية « واشي » في الديوان والأغاني جيدة ، ولكن « والي » التي رواها الهجري لا تقلّ عنها جودة ، والتصحيف بينهما ممكن » .

وكنتُ علّقت على هذا البيت في ديوان ابن الدمينة ، ص : ٨٧ أن رواية الهجري له ـ وقد كان مخطوط كتابه من مراجعي :

أقمتُ زماناً بالمدينة راجياً أباصر ما واشي أمية صانع

وقد أكون سهوتُ في النقل فأثبتُّ في عجز البيت « ماواشي » بدل « ماوالي » وليس تحت يدي مصوّرة عن الكتاب فأتحقق الأمر ، ولعل الناشر لم يثبت إن شاء الله إلا صواباً .

وأما « راجياً » في صدر البيت فهكذا كنت قرأته ، فإن صحّ أن في أصل كتاب الهجري « راجناً » بالنون فإن له وجهاً لا يُقْطَع معه بأنه تصحيف . وذلك أن يكون « فاعلاً » من قولهم : « رجن بالمكان » أي أقام به ، فيكون على هذه القراءة قد وقع حالاً مؤكّدة لعاملها : « أقمتُ » وأما على قراءة « راجياً » فيكون حالاً مؤسّسة .

١٣ ـ وفي الفقرة (٥٥) تكلّم الأستاذ على بيتين رُدّدت نسبتهما بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

توبة والمجنون ، وهما :

أمـا وأبي ليلى لقـد كنتُ مرّةً أحبّ غـدوّاً نحـو ليلى أزورهـا
ولكن ليلى قطعتْ كلّ مرّةٍ وكل قـوى حبّاً قـديـاً نغيرهـا

قال في البيت الأول : « و « مرّة » من البيت الأوّل أجدها « مدّة » بالدال وبضم الميم . أي أنه ظلّ مدّة يخبّ فرسه أو بعيره لزيارة ليلى »

ولفظ « مَرّة » ليس بمحرّف كما قال الأستـاذ ، بل هو الصحيح الـذي لا ريب فيه ، إنما أراد الشاعر « مرّة من الـدهر » أي حيناً منـه ؛ يـدلّ على ذلك أبين الدلالة قولُ حميد بن ثور (ديوانه ، ص : ٨٨) :

وقد كنتُ في بعض الصّبـاوة أتّقي أمـوراً وأخشى أن تـدور الـدوائرُ
وأعلمُ أنّي إن تغطّيتُ مَرّةً من الدّهرِ مكشوفٌ غطائي فناظر

ونحوه قول جميل (ديوانه ، ص : ٦٥) :

وهلْ ألقينْ سعدى من الـدّهر مرّةً ومارثٌ من حَبْل الصّفـاء جـديـدُ

وقولُه (ديوانه ، ص : ١٧٧) :

أجـدّيّ لا ألقى بثينـةَ مرّةً من الدهر إلا خائفاً أو على رَحْل

ومما جاء فيه لفظ « مرّة » مجرّداً بمعنى « الحين » قول عمرو بن معديكرب (شعره ، ص : ١٢٦) :

كانتْ قريشٌ تحمـلُ الخمرَ مرّةً تجـاراً فـأضحتْ تحمل السُّمّ منقعـاً

وقولُ جميل (ديوانه ، ص : ١٠٠) :

وقـد كان مّمن يسكنُ الربعَ مرّةً جميـلُ المحيّـا قـاصرُ الطَّرْفِ فـاترُهْ

وقولُ يزيد بن الطثرية (شعره ، ص : ٣٧) :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقالوا لقد كنّا نَعدُّك مرّة جليداً وما هذا بفعلِ فتىً جَلْد

هذا ، وقول الأستاذ في شرح البيت : « أي أنه ظل مدّة يخب فرسه أو بعيره لزيارة ليلى » يؤذن بأنه يرى « أحبّ » في البيت تصحيف « أُخِبّ » بالخاء ولكنه سها عن ذكر ذلك . وما رآه أشبه بالصواب . وأحَبُّ إليّ منه أن يكون « أَخُبّ ـ بفتح الهمزة ـ مضارع « خبّ » المجرّد ، أي أُسْرِع ، فيستغني عن تقدير مفعول به . وأما المصدر « غُدُوّاً » ـ وقد أغفله الأستاذ في شرح البيت ـ فيكون على كلا الوجهين واقعاً موقع الوقت ، أي وقت الغُدُوّ ، كما في قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالغُدُوّ والآصالِ رجال ﴾ [سورة النور : ٣٦ ـ ٣٧] .

وأما البيت الثاني ـ والخلل بيّن في عجزه ـ فلم يزد الأستاذ في محاولته تقويمه على أن قال : « .... و « حُبّاً » بالنصب الصوابُ فيها « حُبٌّ » بالجر » ولم يلتفت إلى ما وراء ذلك وفيه ما ينبو عنه الطبع وتنكره البديهة . وذلك أن قوله : « قديماً » لا يصح بحكم معناه أن يكون ظرفاً لفعل مضارع ـ وهو هنا قوله : « نغيرها » ـ إلا أن يقع خبراً لـ « كان » . وهذا يوجب أن يكون الصواب في عجز البيت : « وكلّ قوىً كُنّا قديماً نغيرها » . وظني أن هذا هو الثابت في أصل الكتاب إلا أن الناشر حرّف « كُنّا » فصيرّها « حُبّاً » . ومن الغريب أن يذهب هذا عن الأستاذ وقد هداه طبعه في شرحه للبيت إلى الوجه الصحيح في العبارة عن هذا المعنى فقال : « والمعنى أن ليلى قطعت كل حبل للوصل ، وجميع قوى الحب التي كُنّا قديماً نشدّ فتلها » .

١٤ ـ قال الأستاذ في الفقرة (٥٨) : « وفي (ص ٢٥٥) قصيدة لعبد الله بن أبي صبح المزني[1] جاء فيها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحيٌّ بني لقمانَ فـــالحيُّ حيرة وتقرأ عليهمْ من تحيّتنــا مثــلا

وأظنّ أن الصواب « وحيَّ » و « فالحيَّ » بالنصب منهما[٢] لا الرفع ، لأنّهما في موضع العطف على البيت قبله :

تبلّغ يعقوبَ بن يحيى رسالة وعمراً وشبلا أودع الله لي شبلا

و « تقرأ » حقه الرفع وبه يكسر الوزن ، ولجبره يجب أن تُسَهَّل الهمزة فيقال : « وتقرا » .

وما قاله الأستاذ في « وتقرأ » صحيح ، والوجه في « وحيّ بني لقمان » النصب كما ذكر أيضاً . وأما « فالحيُّ » فليست الفاء فيه عاطفة بمعنى التشريك كما ظن الأستاذ ، بل استأنف الشاعر بها كلاماً آخر على معنى التعليل لما قبله ، والمراد بـ « الحي » حي بني لقمان الذين تقدّم ذكرهم ، والوجه فيه وفيما بعده الرفع ، إذ هما مبتدأ وخبره .

وقد فات الأستاذ أن لا موقع لـ « حيرة » ـ بالحاء المهملة ـ ههنا ، ومن البيّن أنه تصحيف « جيرة » بالجيم ، أي جيران .

١٥ ـ قال الأستاذ في الفقرة (٥٩) : « وفي (ص ٢٥٨) روي البيت الأول والثاني من قصيدة لعبد الله بن أبي صبح المزني :

ألا حييا الذلفا ألا حييا جُملا وقولا تغنّى حاتم بكما جهلا

لكيما تظنا اليوم أنه فارغ وأقسم أني قد ملأته بي شغلا

والبيت الثاني غير صالح وزناً ولا معنى ، وأظن أن الصواب في رواية صدره : « .... أنّيَ فارغ » أما عجزه فيجوز إصلاحه بأن يقال : « وأقسم أني ممتلٍ منها شغلا » بحذف الهمزة من آخر ممتلئ . وذلك كله يوافق سياق البيت الأول » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله في عجز البيت : « ويجوز إصلاحه .... » قد تقدّم القول في مثله والتنبيه على ما في إطلاق ذلك واللهج به من محذور . ومما يؤخذ على الأستاذ هنا أيضا قوله في « مُمتَلٍ » : « بحذف الهمزة من آخر ممتلئ » والوجه أن يقال : « بإبدال الهمزة من « ممتلئ » ياء وإجرائه مجرى المنقوص » . هذا إلى أن الأستاذ لم يصب مراد الشاعر من جهة ، وخفي عليه وجه اتّزان البيت من جهة أخرى، فقال فيه ما قال ، على حين أن البيت ـ كما أثبته الناشر ـ صحيح معنى ووزناً . وذلك أنه من البيّن أن الشاعر ينقض على حاتم الذي ذكره قصيدةً شبب فيها بالذلفاء وجمل ، ونال فيها منه[٣] ، فهو يقول في هذين البيتين : ألا حييا ـ يا صاحبيّ ـ الذلفاء وجملا ، وقولا لها : إن حاتماً إنما تغنى بكما جهلا ليوهمكما أنه فارغ (يعني من الهموم) فلا همّ له إلا اللهو والتشبيب . ثم يقول : وأقسم أنه ليس بفارغ ، بل إني بتصدّيّ له قد ملأته شغلا بي ـ يريد أنه أورد عليه ما ملأه همّاً ، فهو منه في شغل شاغل . ومن الغريب أن يغيب عن الأستاذ هذا المعنى وهو ظاهر لايكاد يخفى . وليس في البيت بعدُ من جهة الوزن إلا أن الشاعر اضطُرّ لإقامة وزنه إلى حذف واو الصلة من هاء الضمير المتحرك ما قبلها في « أنه » و « ملأته » . ويظهر أن الأستاذ قرأ البيت بإثبات هذه الواو فخُيِّل إليه أنه مختلّ الوزن . وحَذْف واو الصلة ويائها من هذه الهاء في ضرورة الشعر كثير ؛ أنشد سيبويه في « باب ما يحتمل الشعر » ١ : ١٠ شاهداً على ذلك قول مالك بن حريم (وهو من قصيدة له في الأصمعيات ، ص ٥٦ ـ ٦٢) :

فإن يك غثّاً أو سميناً فإنني ... سأجعل عينيه لنفسه مقنعا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم أنشد ص : ١١ ـ ١٢ شواهد أخر ، منها قول الشماخ :

لَـهُ زَجَـلٌ كأنّـهُ صـوتُ حـادٍ   إذا طلب الـوسيقـة أو زميرُ

وقول الأعشى :

ومـالـهُ من مَجْـدٍ تليـدٍ ومـا لـهُ   منَ الريحِ حظٌ لا الجَنوبِ ولا الصَّبـا

ومثل ذلك كثير .

وقد حملت الضرورة بعضهم على أشدّ من هذا ، فأسكنوا هـذه الهـاء في الوصل البتة ، نحو قول يعلى الأحول الأزدي :

فبتّ لـدى البيت العتيـق أخيلـه   ومِطْـوايَ مشتـاقـانِ لَـهْ أرقـانِ

وقد زعم الأخفش أن إسكانها لغة لأزد السراة .

وأشدّ من ذلك كله أن الضرورة ألجأت بعضهم أيضاً إلى حـذف الواو من (هو) والياء من « هي » . ومنه قول الراجز :

دار لسـعدى إذْ هِ من هـواكـا

وقولُ العجير السلوليّ أو المخلّب الهلالي :

فبينـا هُ يشري رحلـه قـال قـائلٌ   لمن جمـلٌ رِخْـوُ المـلاطِ نجيبُ

انظر في بسط ذلـك كلـه ضرائر الشعر ، لابن عصفور ، ص : ١٢٢ ـ ١٢٧ والمصادر التي أحال عليها محققه .

١٦ ـ نقل الأستـاذ في الفقرة (٦١) هـذه الأبيـات لرملـة أخت مشيّع ترثيه :

ألا أيهـا النـاعي سحيراً مشيّعـاً   لعمري لقـد صبّحتَنـا ببـلا

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تركنا لواء العز والمجد ثاوياً ببُغمةَ مبنياً عليه بنا
لعمرك ما كُنّا مللنا مشيّعاً ولكن دواعي ميتة وقصا

وقال فيها : « هكذا وردت أواخر الأبيات « ببلا » و « بنا » و « قصا » بالصاد المهملة . وعندي أن الأولى بالهمز مع السكون ، أي : ببلاءْ ، وبناءْ ، وقضاءْ ، بالضاد المعجمة » .

قلت : الأبيات من الطويل ، ولا يتمّ وزنها بقصر الكلم الواقعة في أواخرها كما أثبتها الناشر ، ولا بمدّهن مع إسكان الهمزة كما اختار الأستاذ ؛ إذ تكون أضربها على الأول بزنة « فَعَلْ » وعلى الآخر بزنة « فعولْ » وكلاهما ليس من أضرب الطويل . ولا تستوفي الأبيات وزنها إلا بمدّ هؤلاء الكلم وتحريك الهمزة وإطلاقها (ببلاءِ ، بناءُ ، قضاءُ) فتكون من ثالث الطويل ، أي الضرب المحذوف ، ووزنه « فعولن » . ويظهر أن الأستاذ ما اختار أن تكون الأبيات مقيّدة (ساكنة الروي) إلا اتقاء الإقواء ، وقد تقدّم أن الإقواء في شعر الأعراب كثير ، وأنهم كانوا لا يأبهون له . وقد قال أبو الحسن الأخفش في كتابه : القوافي ، ص : ٤٢ (ط . وزارة الثقافة بدمشق) ٤٧ (ط . دار الأمانة ببيروت) بعد أن ساق أمثلة من الإقواء : « وقد سمعت مثل هذا من العرب كثيراً ما لا يحصى ، قلّ قصيدة ينشدونها إلا وفيها الإقواء ثم لا يستنكرونه .... » .

١٧ ـ وفي الفقرة (٧١) تكلّم الأستاذ على بيتين للغاضري أخلّ بهما التصحيف ، وأولهما :

وهاجرة يقبل الذئب فيها على الغنم الرباع وهْوْ يراها

هكذا جاء البيت ! ورأى الأستاذ أن الصواب : « .... يَقيل الذئبُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها × عن الغنم .... » والقول ما قال[٤] ، وبه يتزن البيت ويضح وجه المعنى . غير أنّ في البيت شيئاً آخر لم يلتفت الأستاذ إليه ، وهو وصف الغنم بـ « الرّباع » فإنه لا يكاد يبين له وجه ، والظاهر أنه تصحيف « الرتاع » بالتاء ، من قولهم : « رتعت الماشية » أي أكلت ما شاءت ، وذهبت وجاءت في المرعى نهاراً ، ومنه يقال : « ماشية رُتّع ، ورُتوع ، ورواتع ، ورِتاع » كما جاء في اللسان (رتع) .

والبيت الآخر :

قطعتُ مخوفها بعثمّات عشاف السرّ تنفخ في بُراها

وقد ذهب الأستاذ إلى أن « عشاف السرّ » تصحيف « عساف السَّيْر » ويظهر أنه كما قال ، غير أنه وصل ذلك بقوله : « و « تنفخ » بالخاء المعجمة تصحيف « تنفج » بالجيم . والمعنى : أنه قطع مخوف الصحاري بإبل طويلة غليظة تركب رأسها في السير لا يثنيها شيء ، وتثير ما تطأ من تراب » .

وقد أبعد الأستاذ في هذه المقالة ؛ فإنه ما يُعْرَف أنه يقال : « نفج الترابَ » أو « نفج في التراب » بمعنى أثاره . ثم إنه أقرّ ضم الباء في « بُراها » والتراب إنما يقال له : « البَرى » بفتح الباء . و « تنفخ في بُراها » ـ كما أثبته الناشر تبعاً لأصل الكتاب ـ هو محض الصواب ، و « البُرى » بضم الباء جمع « بُرَة » وهي حلقة من صفر أو نحاس تجعل في أنف البعير ويُعَلّق بها الزِّمام . وهذه العبارة ونحوها مما يتردّد في صفة المطايا ، ومن ذلك قول أبي سدرة سحيم بن الأعرف الهجيمي من أبيات مدح بها حسان بن سعد الأسدي عامل الحجاج على البحرين (الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

والشعراء ، ص : ٦٤٢ ، والمجتنى ، لابن دريد ، ص : ٦٣ ، والمؤتلف والمختلف ، ص : ٦٥ ، وفرحة الأديب ، ص : ٦٥ ، وهي عن الفرحة في الخزانة ١ : ٢٨٠) :

إلى حسّان من أكناف نجد رحلْنا العيس تنفخ في بُراها

وقولُ بعض الأعراب (أنشده ياقوت في معجم البلدان : المأزمان) :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً وأهلي معاً بالمأزمين حلولُ
وهل أُبْصِرَنّ العيس تنفخ في البُرى لها بمِنىً والمحرمين ذَميلُ

وقول عبد الرحمن بن الحكم ، وينسب أيضاً إلى زياد الأعجم (إصلاح المنطق ، ص : ٩ ، وتهذيبه للخطيب التبريزي ١ : ١٣ ـ ط . مصر ، وص : ٣٨ ـ ط . بيروت بتحقيق د . قباوة ، والمحكم ١ : ٩١ ، والمخصص ٧ : ١٤٣ ، والتكملة : قطع ، واللسان : صنع ، قطع) :

أتتْكَ العيسُ تنفخ في بُراها تَكَشَّفُ عن مناكبها القُطوعُ

ونحو ذلك قولُ أبي الرُّبَيْس الثعلبي من مقطعة له في « الحماسة » :

يُباري بها القُودَ النوافخَ في البُرى قليلُ النزول أغيدُ الخَلْق عاطلهْ

وفي تأويل هذه العبارة قولان ذكرهما الخطيب التبريزي في شرحه لبيت عبد الرحمن بن الحكم في تهذيب الإصلاح ، قال : « العيس : الإبل البيض ، الذكر : أعيس ، والأنثى : عيساء . والبُرى : جمع بُرَة ، وهي الحلقة من صفر تكون في أنف البعير . والمناكب : فروع الكتفين . يعني أن مناكبها عظام ، فلا تسترها كلَّها القطوعَ . وقيل : لسرعتها ونشاطها . وإنما أراد أنها أعيتْ من السير ، واضطرب الرحل فوقها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فنفخت في بُراها من البُهْر والتعب الذي لحقها ، وتكشفت القطوع عن مناكبها . يصف كلال راحلته وبُعْدَ الشُّقّة ليرعى حقّ قصده إليه من المكان البعيد .... » وهذا التفسير الأخير الذي ارتضاه الخطيب هنا أخذه بلفظه من كلام ابن السيرافي في شرح أبيات الإصلاح (انظر نص كلام هذا في المشوف المعلم ٢ : ٦٤٨ ، التعليق : ٢) . وأما القول الذي حكاه بصيغة التمريض - وهو يفيد أنها تنفخ في بُراها لنشاطها وسرعتها - فقد أخد به هو نفسُه في تفسيره لبيت أبي الربيس في شرح الحماسة ٣ : ١٢٩ ولم يذكر غيره ، قال : « النوافخ : المتنفسّات نفخاً لنشاطها » وأصل هذه المقالة من كلام المرزوقي في شرحه للحماسة ، ص : ١٢٥٨ أخذها منه الخطيب بلفظها ، وكان المرزوقي قد قال قبلها أيضاً أول ما أخذ في شرح البيت : « يقول : يعارض بهذه الراحلة التي وصفتُها رواحلَ طوالَ الأعناق تنفخ في بُراها لنشاطها رجلٌ قليلُ النزول عنها .... » . وهذا التفسير أحرى بالصواب ، فإن بيت أبي الربيس لا يحتمل غيره ، ويصدّقه ثاني البيتين اللذين أنشدهما ياقوت :

وهل أُبْصرنّ العيسَ تنفخ في البُرى لها بمِنىً والمحرمين ذميلُ

فإن « الذَّميل » - وهو سير ليّن سريع فوق العَنَق - لا يكون من راحلة نهكها التعب ، وأدركها الكلال .

هذا ، وما قاله التبريزي والمرزوقي في شرح البيتين يوهم أن قولهم : « في براها » و « في البرى » ظرف لغو يتعلق في بيت أبي الربيس بالوصف : « النوافخ » وفيما قبله بالفعل : « تنفخ » . والوجه عندي فيه أنه ظرف مستقرّ وقع موقع الحال من الفاعل ، وهو الضمير المستتر في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفعل والوصف ، كأنهم قالوا : « تنفخ وهي في براهـا » و « النوافخ وهي في البرى » . يدلّ على ذلك أبين الدّلالـة أن مثل هـذا الظرف وقع موقع الخبر عن « المطايا » في قول القائل (أنشده ابن سيده في المحكم ١ : ١٤٨ ، وهو عنه في اللسان : بقع) :

وأبقـعَ قـد أرغْتُ بـه لصحبي مَقيـلاً والمطـايـا في بُراهـا

وقد رأيت المرزوقي صرح في شرحـه للحماسة ، ص : ٦٧٧ بأن مثل هـذا الظرف وقع موقـع الحـال في بيت من مقطعـة نسبت إلى الفرزدق ، وتنسب أيضاً إلى البرج بن خنزير التميمي ، ونسب بعضهـا إلى مـالـك بن الريب[٥] ، وهو قوله :

مُخَيَّسـةٍ بُزْلٍ تَخـايـلُ في البُرى سَـوارٍ على طـول الفـلاة غـواد

قال المرزوقي : « وقولـه : « تخايل في البرى » أي تختـال في سيرهـا وهي مُبْراة تطيـق وصـل السير بـالسرى على امتـداد الشقّـة وطـول الـوجهـة . وقـولـه : « في البُرى » في مـوضـع النصب على الحـال » . وقـد تـابعـه التبريزي على ذلك في شرحه للحماسة ٢ : ١٠٩ .

وفي الشعر شواهـد أخر وقع هـذا الظرف في بعضهـا موقـع الحـال من المطايا ، ووقع في بعضها موقع الصفـة لهـا . من ذلـك قول حميـد بن ثور (ديوانه ، ص : ٣٨) :

فمـا لَحِـقَ العِيران حتى تـلاحقتْ جمـالٌ تَسـامى في البُرين ونـوقُ

وقولُ أبي وجزة السعدي (العباب ، واللسان : خنف) :

قـد قلْتُ والعيس النجـائب تغتلي بـالقوم عـاصفـةً خوانِفَ في البُرى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقول جرير (النقائض ، ص : ٢٧١)

طلبوا الحَمولَ على خواضعَ في البُرى يُلْحِقْنَ كلَّ معــــذَّلٍ بَسّـــام

وقولُ ذي الرّمة (ديوانه ٢ : ١٠٥٩) :

فلم تستطع مَيٌّ مهاواتَنــا السُّرى ولا ليــلَ عِيسٍ في البُرين ســوامِ

وكلّ هذه الأبيات ـ كما ترى ـ في صفة رواحل نشيطة تغذّ السير ، وكأنهم لا يصفونها بأنها « في البرى » إلا وهي كذلك . وفي هذا ما يؤيّد أن الصحيح في تأويل قولهم : « تنفخ في براها » أنها تنفخ لنشاطها وسرعتها لا من الكلال والإعياء .

الحواشي والتعليقات

(١) كذا قال الأستاذ ، وهو مماسها فيه ، فالقصيدة ـ كما ذكر الهجري ـ لأبي مدرك حاتم بن مدرك السلمي يرد بها على عبد الله بن أبي صبح المزني .

(٢) كذا في أصل مقالة الأستاذ بخطه ، ويظهر أنه سبق قلم ، والمراد : « فيهما » .

(٣) وحاتم هذا هو حاتم بن مدرك السلمي الذي ذكرت آنفاً أنه هو صاحب القصيدة التي سلف الكلام على بيتين منها في الفقرة السابقة ، وابن أبي صبح يرد عليه بقصيدته هذه . ويظهر أنه كان بينهما مماظة وشرّ ثم اصطلحا ؛ روى الزبير بن بكار في جمهرة نسب قريش وأخبارها ١ : ١٠٧ ـ ١٠٨ قال : « حدثني أبو غزيّة (محمد بن موسى الأنصاري) قال : جرى صلح بين عبد الله بن عمرو بن أبي صبح وبين حاتم بن مدرك السلمي ، فقال حاتم :

دعـــاني أبـــو عمرٍو إلى الله دعـوةً أصابَ بها مـا في فـؤادي ولا يَـدْري
إلى خَلْــقٍ مِنْ خَيْرِ مَن وَطِئَ الحصـــا وفي رَوْضَــةٍ بَيْنَ الأســاطينِ والقبرِ
فَتُبْنـا وأَشْهَـدْنـا الـزُّبَيْرَ وإن نَعُـدْ بِنَقْضٍ فَما مِن تَـوْبَــةٍ آخرَ الــدَّهْرِ

قال أبو غزية : يريد الزبير بن خبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير » .

وذكر محقق الكتاب شيخنا أبو فهر في تعليقه عليه أنه لم يجد لحاتم هذا ترجمة . وأما ابن ابن أبي صبح ـ وقد روى له الزبير في كتابه هذا شعراً كثيراً ـ فقال شيخنا فيه ، ص :

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٦٧ ـ ٦٨ التعليق : ٢ : « ابن أبي صبح المزني ، هو عبد الله بن عمرو بن أبي صبح المزنيّ ، وسيأتي له شعر كثير ، ورأيت له ترجمة في الفهرست لابن النديم : ٧٣ ، ٧٤ [٤٩ ـ ط . فلوغل ، ٥٥ ـ ط . طهران] وقال : « أعرابي بدوي ، نزل بغداد وبها مات . كان شاعراً فصيحاً أخذ عنه العلماء ، وله مع الفقعسي أخبار طريفة » يعني محمد بن عبد الملك الأسدي الفقعسي راوية بني أسد » .

قلت : وترجمته هذه نقلها القفطي بتصرف في إنباه الرواة ٢ : ١٢٥ ، وقد صحفت نسبته فيه إلى « المرّيّ » .

(٤) وقد وجدت الناشر أثبت في عجز البيت : « عن الغنم .... » لا « على الغنم .... » كما نقله الأستاذ .

(٥) انظر تعليق الأستاذ عبد السلام هارون على المقطعة في شرح الحماسة ، وتخريج الدكتور نوري القيسي لأبياتها في شعر مالك بن الريب ، شعراء أمويون ١ : ٥٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net